OPEN ACCESS
Journal of Arabic Research (AIOU)
jar.aiou.edu.pk
iri.aiou.edu.pk

بلاغة التقديم والتأخير في أسماء الله الحسنى في تفسير اللباب في علوم الكتاب

The rhetoric of pre and post positioning for Allah's good names in Tafsir-ul-Lubab Fi Uloom-il-Kitab

❁ لي تسونغ علي عبد الله (**Li Chong**)

باحث مرحلة الدكتوراه، قسم الأدب، كلية اللغة العربية ، الجامعة الإسلامية عالمية بإسلام آباد

❁❁ أ. د. فضل الله

عميدالكلية، اللغة العربية، الجامعة الإسلامية عالمية بإسلام آباد

Abstract

We find several terms in this field, for example: refining ethics, ethics literature, and moral wisdom. We also find many uses of the term "creation", such as its use in the sense of instinctive powers "that is, the body in the soul from which the verb is issued without thought." This is close to the meaning of temper and character. As well as its use to denote "the acquired condition in which a person becomes a creator to do something Without anything like someone who is angered by the severity of his temper, this is close to the meaning of temperament.

The research includes the concept of morality, language and idiom, and the opinions of linguists and their sayings, such as Ibn Manzur's saying: "Creation and temperament is attainable ... It is by combining fear and its dysfunction in religion, nature and temperament." And as Al Ragheb Al-Asfahani said: "Creation is originally one thing like drinking and drinking, the eternal and the pure and the pure, but the form is the form Creation was summed up with the perceptive powers and attributes. The Almighty said: (And you are of great creation).

And there are many definitions of ethics scholars, including: the definition of Al-Farabi, Al-Hajiz, Ibn Qutaiba, Ibn Miskawayh (d. 431 AH), Al-Ghazali (d. 505 AH), and Youssef Al-Qaradawi.

The source of ethics among Muslim writers, ethics from the beginning of Islam was based on religion and its source is the Holy Qur'an, prophetic traditions, wisdom and proverbs that reached the Arabs from the experiences of time.

Keywords: ethics, literature, wisdom, morality, linguists, sayings, Ibn Manzur, Asfahani, Al-Farabi, Al-Hajiz, Ibn Qutaiba, Ibn Miskawayh, Al-Ghazali, Al-Qaradawi, source of ethics

Allah Almighty has mentioned in the Noble Qur'an that He has the Most Beautiful Names, so we use them when we pray and praise Him. These

beautiful names are extremely important, and the importance of understanding them correctly shows that it is an important part in believing in His Divinity, and it is also an important subject studied by other sciences, including the science of rhetoric. This research studies what relates to these beautiful names, and its rhetorical secret in the pre and post positioning between the two names or the two attributes of Allah Almighty.

Keywords: Quranic Rhetoric, Pre and Post Positioning, Good names for Allah, Interpretation, Ibn Adil.

فاتحة ومهاد

الحمد لله رب العالمين، الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن الدراسة البلاغية للقرآن الكريم جزء مهم في العلوم الإسلامية، قد بذل العلماء جهودا بالغة في هذا المجال لبيان جمالة في التعبير وكماله في المعنى، بالإضافة إلى انسجامهما في السياق والمناسبة لخدمة الموضوع والمقصود. التقديم والتأخير جزء مهم من علم البلاغة، له فوائد فريدة كما قاله الشيخ عبد القاهر الجرجاني1: "هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان."2

فالجزءان المختلفان في الكلام إذا تقدم أحدهما أو تأخر يعبران معنيين مختلفين، ففي هذا الفرق الدقيق سر بلاغي وفي أكثر الأحيان لا نعرفه إلا بعد التأمل والتأني، فيجد المخاطَب مقصود المتكلم بما فيه من اللذة واللطف، وهذه الميزة توجد في القرآن الكريم خاصة. وللتقديم والتأخير في أسماء الله تعالى الحسنى فوائد وأسرار بلاغية خاصة في فهم مقصود ربنا عز وجل، فأردت أن أدلو بدلوي في هذا الموضوع ببحث متواضع. وللبحث في مثل هذا الموضوع لشرف عظيم، لأن الله سبحانه وتعالى قد رغب في الدعاء بأسمائه الحسنى كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾3

وقال أيضا: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾4

وقال أيضا: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾5

قد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن له الأسماء الحسنى، فبه ندعو ويسبح له كل خلقه. لهذه الأسماء الحسنى أهمية بالغة، فأهمية فهمها فهما صحيحا تتضمن في العقيدة لأنه جزء مهم في الإيمان بألوهيته تبارك وتعالى، كما أنها أيضا موضوع مهم تدرسها علوم أخرى، منها علم البلاغة. فهذا البحث يدرس ما يتعلق بهذه الأسماء الحسنى من الأسرار البلاغية في التقديم والتأخير بين الأسمين أو الصفتين لله تعالى.

قد ذكر الله تعالى في القرآن اسما منفردا أحيانا وفي أكثر الأحيان جاءت هذه الأسماء ثنائيا، فبطبيعة الحال يوجد في هذين الاسمين اسم مقدم وأخر مؤخر، فعلى هذا الأساس تكون هذه الأسماء التي جاءت ثنائيا هي موضوع بحثي هذا.

كما أنني وجدت أن المفسرين أيضا اهتموا بهذا الموضوع، فقد تكلموا عنه كثيرا، ثم وجدت أن تفسير اللباب في علوم الكتاب لابن عادل6 تفسير مهم في هذا الموضوع لأنه جمع فيه العلوم العربية والإسلامية وآراء السابقين ليكون هذا التفسير موسوعة علمية ولكنه لم ينل اهتمام الباحثين كثيرا. هوكذلك اهتم بعلم البلاغة، وتكلم كثيرا عن تقديم اسم الله تعالى على اسم أخر بما فيه من سبب وفائدة وسر بلاغي. فهذا البحث مبني على شروحه لكي نقارن بين قوله وقول العلماء الآخرين حتى نعرف السر البلاغي فيه أولا، وكيفية تأثر بعضهم ببعض ثانيا. وسأقدم كل ما قاله ابن عادل عن التقديم والتأخير بين هذه الاسماء فيما يلي.

فقبل أن ندخل في تفسير ابن عادل نقرأ أولا قصة مشهورة في هذا الموضوع لكي نعرف معرفة عامة لفائدة السياق في تحديد معنى الآية وفهمها:

ما حكي عن الأصمعي7 أنه قال: كنت أقرأ "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم." وبجانبي أعرابي فقال: كلام من هذا؟

قلت: كلام الله.

قال: أعد.

فأعدت.

قال: ليس هذا كلام الله.

فانتبهت فقرأت: والله عزيز حكيم.

فقال: أصبت، هذا كلام الله.

فقلت:أتقرأ القرآن؟

قال: لا.

قلت: من أي شيء علمت؟

قال: يا هذا عز فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع.8

لقد لاحظ الأعرابي بفطرته السليمة أن الآية تتحدث عن حكم شديد من أحكام الإسلام وهو قطع اليد للسارق درءا للمفاسد وتخويفا لغيره، فليس من المعقول أن تنتهي الآية بكلمة "غفور رحيم"، لأن هذا المكان ليس محل المغفرة بل لتطبيق الحدود.

من هذه القصة نعرف بوضوح إحكامية كلام الله تعالى وتفوقه على كلام الناس، كما تقدم القصة لنا فائدة السياق في تحديد معنى الآية وفهمها فهما صحيحا. وأيضا منها نعرف أن ترتيب الصفات المختلفة له علاقة قوية بالسياق أيضا، ففي هذه الآية أن الله عزيز لا غالب له فحكم بحكمة، فيها تقديم السبب على المسبب.

الآن نأتي إلى ما هي نحو هذه الآية ذكرها ابن عادل وشرحها في تفسيره، منها:

أ- تقديم العليم على الحكيم:

ذكر ابن عادل أولا تقديم العليم على الحكيم في قوله تعالى:

1- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾9.

في هذه الآية تقديم "العليم" على "الحكيم"، فبين ابن عادل سبب هذا التقديم لأنه هو المتصل به في قوله "وعلم"، وقوله "لا علم لنا" فناسب اتصاله به، ولأن الحكمة ناشئة عن العلم وأثر له وكثيرا ما تقدم صفة العلم عليها.10

الحكمة تنشأ من العلم، فمن كلامه نعرف أن تقديم العلم على الحكمة في الآية يتعلق بما قبلها، فذكر الله تعالى أنه علم الآدم الأسماء كلها، فلا بد من هذا التعليم حكمة، وقال الملائكة: "إنك أنت العليم الحكيم" فكأنهم قالوا: أنت العالم بكل المعلومات فأمكنك تعليم آدم، وأنت الحكيم في هذا الفعل المصيب فيه.

هذا رأي ابن عادل، فهو بين لنا سبب تقديم "عليم" على "حكيم" مع الإشارة بوضوح إلى دور السياق والمناسبة في ترتيبهما. فكلامه وشرحه في هذا وجيه وجميل لأن لكل واحد في شرح مثل هذه الآية رأيه الخاص المقبول بشرط ألا يكون رأيه مخالفا للعقائد والشريعة وسنن الله تعالى. فكل مفسر فسر وشرح الآية حسب عقله وفهمه، ويتناولها من جانب من جوانبها. فلا داعي أن نحكمه بصحة أو خطأ.

هناك أقوال العلماء الآخرين من السلف والخلف في هذه الآية ينبغي من ذكر سر من هذا التقديم، لنعرف تأثره بهم أو تأثيره عليهم في هذه المسألة.

رأى أبو حيان11 أيضا مثل هذا الرأي، فأشار أولا إلى حسن جواب الملائكة لكلام الله تعالى بتقديمهم بين يدي الله تعالى، ثم اعترافهم بجهلهم، ثم نسبتهم إلى الله العلم والحكمة معا. ثم بين أن "تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لأنه المتصل به في قوله "وعلم" و"أنبئوني" و"لا علم لنا"، فالذي ظهرت به المزية لآدم والفضيلة هو العلم، فناسب ذكره متصلا به، ولأن الحكمة إنما هي آثار العلم وناشئة عنه"، ثم أشار أيضا إلى أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة مبينا سببه بأن يكون آخر مقالهم مخالفا لأوله حتى رجوعهم عن قولهم "أتجعل فيها" وعلى القول"الحكيم".12

ثم وجدت هذا الرأي عند السمين الحلبي،13 لأن الأخير أيضا قال أن تقديم "العليم" على "الحكيم" بسبب اتصال "العليم" بما قبله من قولهم "علم"، و"لا علم لنا"، فناسب هذا الاتصال. والحكمة تأتي بعد العلم، فقالت الملائكة بتقديم العليم على الحكيم.14

فمن هنا نعرف أن ابن عادل تأثر بالسلف، ولكن في الحقيقة أن تأثر المفسر بالسابقين ليس من العيب، لأن الآراء والشروح لكثير من آيات الله تعالى واضحة ومقبولة عند كل الناس، فالمتأخرون يأخذون من المتقدمين بعض الآراء العلمية قابلين ومؤيدين لها هذا يحدث في كل زمان وعند كل العلماء.

وأما المتأخرون ومنهم أبو السعود،15 فقال "تلك الجملة تعليل لما سبق من قصر عليهم بما علمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفي عليهم فكأنهم قالوا أنت العالم بكل المعلومات التي من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات التي عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على ما في الأرض وبناء أمر الخلافة عليها.16

فقد أشار في كلامه هذا إلى سبب تقديم "العليم" على "الحكيم" وإن لم يبينه بشكل واضح إلا أنه بين أن تعليم آدم يعقبه "الحكيم" يدل على أن العلم وهذا التعليم لآدم عليه السلام دون تعليم الملائكة لا يفعله إلا ماتقتضيه الحكمة. فالحكمة تأتي بعد العلم دائما.

أما ابن عاشور الذي زمان عيشه قريب منا17 فقال في تفسيره: "وتعقيب العليم بالحكيم من اتباع الوصف بأخص منه فإن مفهوم الحكمة زائدة على مفهوم العلم؛ لأن الحكمة كمال في العلم فهو كقولهم خطيب مصقع وشاعر مفلق."18

فقد جاء ابن عاشور بشيء جديد، فرأى أن الحكمة كمال في العلم أخص منه فجاءت الحكمة بعد العلم.

من كلامهما نعرف أن المتأخرين مثلهما تأثروا بالمتقدمين لا محال، وهم في نفس الوقت استطاعوا أن يقدموا بشيء جديد يتسم بالجدة والصحة.

ب- تقديم السميع على العليم:

ثم هناك بعض الآيات فيها تأخير الصفة "العليم" ولكن قبلها صفة أخرى، منها آية:

1- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾19

هذه الآية تتكلم عن دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بعد رفعهما قواعد الكعبة الشريفة أن يتقبل الله تعالى عملهما الصالح وخص الله هاتين الصفتين كما قاله ابن عطية20 لتناسبهما مع حالهما، ومعنى الصفتين هنا: "إنك أنت السميع لدعائنا والعليم بضمائرنا ونياتنا"21. فرأى ابن عادل أن تقدم صفة السمع للمجاورة، وإن كان سؤال التقبل متأخرا عن العمل، كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾22. وتأخرت صفة العلم، لأنها فاصلة ولأنها تشمل المسموعات وغيرها.23

فرأي ابن عادل في هذا التقديم واضح، فتقديم "السميع" عنده للمجاورة، لأن ما يجاورها هو دعاء إبراهيم وإسماعيل والدعاء أقرب إلى السمع فالسمع مقدم. وتأخير العلم هنا عنده للفاصلة، ولأنها أشمل من صفة السمع، فهذا تقديم صفة على صفة أشمل والصفة الأشمل في العربية دئما تأتي متأخرة عندما نصف شيئا بصفتين متقاربتين.

وهذا أيضا رأي السمين الحلبي24 وأبي حيان25 من قبله، وابن عاشور26 وغيره من المتأخرين.

ثم آية أخرى فيها تقديم "سميع" على "عليم"، ولكن ابن عادل رأى أن سبب هذا التقديم سبب آخر:

2- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾27

فرأى ابن عادل أن هذه الآية تتكلم عن الحلف، وقوله تعالى ختم بهاتين الصفتين، لتقدم مناسبتهما، والحلف مناسب السمع، وإرادة البر والتقوى والإصلاح من فعل القلب يناسب العلم، فقدم السميع على العليم بسبب تقدم ما يناسبه وهو حلف.28

وبشرحه نعرف معنى الآية أن الله تعالى يسمع إن حلفتم، وإن تركتم الحلف للبر والتقوى فهو عليم يعلم ما في قلوبكم ونيتكم.

كما أن صاحب الدر المصون من قبله أيضا رأى هكذا.29 ثم العلماء بعدهما أيضا تأثروا بهما في هذا الرأي، منهم أبو حيان في تفسيره عند شرح هاتين الصفتين، فقال: "ختم هذه الآية بهاتين الصفتين لأنه تقدم ما يتعلق بهما، فالذي يتعلق بالسمع الحلف، لأنه من المسموعات، والذي يتعلق بالعلم هو إرادة البر والتقوى والإصلاح، إذ هو شيء محله القلب، فهو من المعلومات، فجاءت هاتان الصفتان منتظمتين للعلة والمعلول، وجاءتا على ترتيب ما سبق، من تقديم السمع على العلم، كما قدم الحلف على الإرادة."30

من هنا أن أبا حيان استفاد من سابقيه إلا أنه فصل وأضاف أن علاقة هاتين الصفتين علاقة العلة والمعلول.

والآية الأخرى فيها تقديم "السميع" على "العليم":

3- ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾31

قبل هذه الآية آية "لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ"،32 فهذه الآية ترد على الذين لاهية قلوبهم بما أسروا من القول، فقال الله تعالى أنه يعلم القول في السماء والأرض، لأنه هو سميع لأقوالهم وعليم بما انطوت عليه ضمائرهم. فهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله بما فيه معنى الوعيد.

وأما عن سبب تقديم السميع على العليم، فقال ابن عادل بأنه لا بد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم.33

من كلامه نعرف أنه رأى أن هنا أيضا كما تقدم في مثل هذه الآية تقديم العلة على المعلول ولوحظ فيها الترتيب الزمني.

وهكذا رأى الفخر الرازي34 قبله. 35

ج- تقديم العليم على القدير:

الآن نتكلم عن آية أخرى فيها تقديم العليم على الصفة الأخرى:

1- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾36

هذه الآية تتكلم عن علم الله تعالى وقدرته؛ لأن من هو قادر على شيء لا بد يحيطه بعلمه أولا، فجاء الله تعالى بهاتين الصفتين هنا.

أما ابن عادل فبين في تفسيره سبب تقديم العليم على القدير قائلا: "ما الحكمة في قوله ههنا:

وهو العليم القدير فقدم العلم على القدرة، وقوله من قبل: وهو العزيز الحكيم،37 والعزة إشارة إلى كمال القدرة، والحكمة إشارة إلى كمال العلم، فقدم القدرة هناك على العلم؟

فالجواب أن المذكور هناك الإعادة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لأن الإعادة بقوله: كن فيكون، فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل، فالعلم ههنا أظهر ثم إن قوله تعالى: وهو العليم القدير، فيه تبشير وإنذار، لأنه إذا كان قادرا فإذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب الذين هما بالقدرة والعلم قدم العلم، وأما الآية الأخرى فالعلم بتلك الأحوال قبل العقاب فقال: وهو العزيز الحكيم."38

ظهر من هنا أن ابن عادل لم يبين سبب التقديم ههنا فحسب، بل بينه مع الاختلاف في التقديمين في الموضعين. فرأى أن السياق هو يحدد، فالسياق هنا يناسب تقديم العلم، وأما في الآية الأخرى فسياقها يناسب تقديم القدرة، وهذا ليس تعارضا، بل هو يدل على علو أسلوب اللغة القرآنية وإعجاز التعبير الإلهي.

وقد استفاد ابن عادل من الفخر الرازي، فالرازي في تفسيره رأى نفس الرأي في الاختلاف في التقديم في الموضعين، وبيّن سبب هذا الاختلاف بنفس الكلام. فقال: "فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا."39

د- تقديم التواب على الرحيم:

ثم نأتي إلى الآيتين فيهما تقديم التواب على الرحيم:

1- ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾40.

هذه الآية تتكلم عن قبول الله تعالى لتوبة آدم عليه السلام لأن الله تعالى هنا يقص لنا كيفية إزلال آدم وزوجه الشيطان بسبب خطئهما،41 فقال ابن عادل أن تقديم "التواب" على "الرحيم" لمناسبة "فتاب عليه"، ولأنه مناسب لختم الفواصل بالرحيم.42

من كلامه الواضح نستطيع أن نعرف أن مجيء "التواب" في الآية لمناسب هذه القصة وقوله تعالى "فتاب عليه"، لأن الله قبل توبة آدم عليه السلام فهو تواب، وهذا يدل على أنه رحيم به وبالتوابين، فيعقبه "الرحيم" ليتمم هذا المعنى الجليل، هذا من تقديم السبب على المسبب، مع أن يكون هذا أيضا من حسن ختم الفواصل لهذه الآية.

هذا رأي ابن عادل في هاتين الصفتين في هذه الآية، حيث أنه استفاد من السمين الحلبي43 الذي أشار إلى أن تقديم "التواب" على "الرحيم" لفائدتين: المناسبة لما قبلها وحسن الختم.44

وأما ابن عطية فقد بين فائدة أعمق لهذا الترتيب قائلا: "وفي قوله تعالى "إنه هو التواب الرحيم" تأكيد فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله، لا من العبد وحده لئلا يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه."45

وأبو حيان بعد ابن عطية قد جاء بنفس الرأي مع بيان الفائدة لهذا التقديم، فأشار إلى أن أعقب الصفة الأولى بصفة الرحمة لأن قبول التوبة سببه رحمة الله لعبده، فتقدم التواب لمناسبته "فتاب عليه" ولحسن ختم الفاصلة. وهذا كله ترغيب من الله تعالى للعبد في التوبة والرجوع إلى الطاعة وإطماع في عفوه تعالى وإحسانه لمن تاب إليه.46

ثم الآلوسي47 بعدهم أيضا رأى نفس الرأي، فقال أن جمع بين وصفي كونه توابا وكونه رحيما إشارة إلى مزيد الفضل، وقدم "التوبة" لظهور مناسبته لما قبله، وقيل في ذكر "الرحيم" بعده. إشارة إلى

أن قبول التوبة ليس على سبيل الوجوب، بل على سبيل الترحم والتفضل، وأنه الذي سبقت رحمته غضبه فيرحم عبده في عين غضبه فسبحانه من تواب ما أكرمه ومن رحيم ما أعظمه.48

فالآلوسي لم يأت بجديد، كل كلامه في هذا كلام سابقيه.

ثم بينه ابن عاشور أن قوله "إنه هو التواب الرحيم" تذييل وتعليل للآية السابقة لأن يفيد مفادها مع زيادة التعميم والتذييل من الإطناب. ثم شرح سبب تقديم "التواب" على "الرحيم" "لأن الرحيم جار مجرى العلة للتواب إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم وإلا لكانت التوبة لا تقتضي إلا نفع التائب نفسه بعدم العود للذنب حتى تترتب عليه الآثام. وأما الإثم المترتب فكان من العدل أن يتحقق عقابه لكن الرحمة سبقت العدل هنا بوعد من الله".49

فقد أشار ابن عاشور إلى أن تقديم التواب على الرحيم على أن الصفة الأولى لمناسبة ما قبلها، والصفة الثانية لتعليل الصفة الأولى. ثم كما فعل سابقوه أشار إلى فائدة هذا الترتيب.

ثم آية أخرى فيها أيضا تقديم "التواب" على "الرحيم":

2- ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾50.

هذا دعاء إبراهيم وإسماعيل-عليهما السلام-بعد رفعهما لقواعد البيت الشريف، فقد أشار ابن عادل إلى قاعدة مهمة عند شرح هذه الآية، فقال: "إذا أراد الله من العبد أن يجيب دعاءه، فليدع بأسماء الله المناسبة لذلك الدعاء، فإن كان الدعاء للرحمة والمغفرة، فليدع باسم الغفار والتواب والرحيم وما أشبهه، وإن كان دعاؤه لشر، فليدع بالعزيز والمنتقم، وبما يناسبه. ثم أشار إلى أن شرح هاتين الصفتين قد تقدم، أي أن سبب تقديم "التواب" على "الرحيم" هو كما تحدثنا في الآية السابقة، أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - طلبا من الله

تعالى التوبة عليهما فجاء هنا على فم إبراهيم- عليه السلام – صفة "التواب" ليناسب هذا الدعاء، ثم تعقبه صفة "الرحيم" ليبين أن هذه التوبة رحمة من الله لا من أنفسهم.

هـ – تقديم الغفور على الرحيم:

ثم ننظر إلى آية آخرى فيها تقديم صفة أخرى "غفور" على "رحيم":

1- ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾51

هذه الآية تتكلم عمن يخاف من موص جنفا أو إثما فيصلح بينه وبين الموصى فلا إثم عليه، لأن الله غفور للإثم ورحيم للآثم. فقال ابن عادل عن تقديم "الغفور" على "الرحيم" بأن هذا بسبب التنبيه بالأدنى على الأعلى، بمعنى أن الله يغفر للذنوب ثم يرحم المذنب، فكأن الله قال بأنني أوصل رحمتي وثوابي أليك، مع أنك تحملت المحن الكثيرة في إصلاح هذا المهم.

كما أنه أشار إلى احتمال آخر بأن مراد الآية أن ذلك الموصي الذي فعل الجنف والإثم متى أصلحت وصيته، فإن الله تعالى يغفر له ويرحمه بفضله. ثم شرح أيضا بأن المصلح يحتاج إلى الإصلاح في أفعاله وأقواله، فإذا أراد الأصلاح وترك هذه الأفعال والأقوال فلا يؤاخذه الله بها، لأن الله غفور أولا ثم رحيم بهذا المصلح لتركه هذه الأفعال والأقوال.52

فخلاصة كلام ابن عادل في هذا هي أن هذا من باب التنبيه من الأدنى على الأعلى، فالمصلح يغفر له الله بسبب نيته الإصلاح لأن كل الأعمال بالنيات، ثم يرحمه بسبب تركه الجنف والإثم وتبديلهما من باطل إلى حق، فيكون "الغفور" مقدم على "الرحيم".

ثم وجدت أن رأيه متأثر بالفخر الرازي،53 كما أن المفسرين بعدهما تأثروا بهما في شرح هذه المسألة، مثل أبي السعود54 والآلوسي55 وابن عاشور56، كما أن هؤلاء المفسرين أضافوا في شرحهم أن تقدم "الغفور" مطابق بتقدم الإثم.

و- تقديم العزيز على الحكيم:

ثم ننظر إلى آيات فيها تقديم العزيز على الحكيم، منها قوله تعالى:

1- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾57

قال ابن عادل أن تقدم قوله "العزيز" لأنها صفة ذات، وتأخر "الحكيم" لأنها صفة فعل.58 ولكنه اكتفى بهذا الكلام ولم يشرح لنا ما هي صفة ذات وما هي صفة فعل، كما لم يبين سبب تقديم صفة ذات على صفة فعل.

ثم وجدت هذا الرأي عند العلماء الآخرين، مثل الفخر الرازي59 والسمين الحلبي60 وأبي حيان61 وغيرهم، إلا أن الفخر الرازي شرح هذه المسألة شرحا أكثر وضوحا، فقال: "العزيز هو القادر الذي لا يغلب، والحكيم هو العالم الذي لا يجهل شيئا، وإذ كان عالما قادرا كان ما يفعله صوابا ومبرأ عن العبث والسفه، ولو لا كونه كذلك لما صح منه إجابة الدعاء ولا بعثة الرسول، ولا إنزال الكتاب. واعلم أن العزيز من صفات الذات إذا أريد اقتداره على الأشياء وامتناعه من الهضم والذلة، لأنه إذا كان منزها عن الحاجات لم تلحقه ذلة المحتاج، ولا يجوز أن يمنع من مراده حتى يلحقه اهتضام، فهو عزيز لا محالة ... وأريد بالحكمة أفعال الحكمة لم يكن

الحكيم من صفات الذات، بل من صفات الفعل."62 ثم أشار إلى الفرق الأساسي بين صفتين الذات والفعل بأن صفة الذات أزلية وصفة الفعل نسبية يعتبر في تحققه صدور الآثار عن الفعل.63

ثم قال أبو حيان في تفسيره بأن هاتين الصفتين جاءتا متناسبتين لترتيب ورود الأشياء ما قبلها، لأن إرسال الرسول لا يصدر إلا عمن اتصف بالعزة، وتعليم الكتاب والحكمة وتزكيتهما طبعا من الحكيم الذي هو كمال العلم. فترتيب هاتين الصفتين تناسبان ترتيب مضمون الآيات قبلهما. كما أنه أيضا أشار إلى أن هذا التقديم هو تقديم صفة الذات على صفة الفعل. ثم بين أن تأخير الحكيم أيضا للفاصلة كالفواصل قبلها، من حيث أن الآيات قبلها تنتهي بـ"العليم" و"الرحيم".64

من كلام هؤلاء العلماء نعرف أن تقديم "العزيز" على "الحكيم" أولا لتناسب الآيات قبلها، ثانيا لتقديم صفة الذات الأزلية على صفة الفعل النسبية، ثالثا لرعاية الفاصلة كالفواصل قبلها.

فجميع العلماء تأثروا من السلف وأثروا على الخلف، فبعضهم أضافوا شيئا جديدا وبعضهم اكتفوا بما هو موجود، والنظرة الشمولية وإحاطة جميع آراء العلماء مفيدة ومثمرة لفهم النص القرآني.

الآن نأتي إلى آية أخرى فيها أيضا تقديم العزة على الحكمة:

2- ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾65

هذه الآية تتكلم عن العذاب لمن زل من بعد ما علم أنه ذنب، وتدل على أن العذاب أشد على العالم بالذنب من الجاهل به، وأيضا تدل على أن المؤاخذة بالذنب لا تحصل إلا بعد البيان وإزاحة العلة.

فقال ابن عادل في تقديم العزة على الحكمة هنا: "وقوله عزيز يدل على الزجر والتهديد والوعيد؛ لأن العزيز هو الذي لا يمنع عن مراده، وذلك إنما يحصل بكمال القدرة، وهو تعالى على كل الممكنات، فكأنه تعالى قال 'فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات' فاعلموا أن الله قادر عليكم، لا يمنعه عنكم مانع، وهذا نهاية في

الوعيد، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه الوعيد بذكر العقاب، كقول السيد بعبده: إن عصيتني فأنت عارف بي، وتعلم قدرتي عليك، والآية كما أنها تدل على نهاية الوعد بقوله تعالى 'حكيم' فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين المحسن والمسيء، فكما يحسن من الحكيم إيصال العذاب إلى المسيء يحسن منه إيصال الثواب إلى المحسن، بل هذا أليق بالحكمة، وأقرب للرحمة، وهذه الآية تدل على أنه لا وجوب لشيء قبل الشرع، لأنه تعالى أثبت التهديد بشرط مجيء البينات وقبل الشرع لم تحصل كل البينات."66

المعروف من كلامه أن ترتيب هذين الاسمين أيضا يأتي ليطابق ما ورد قبلهما، فالعزيز الذي لا غالب إلا هو قادر على العذاب بعد البيان لا مانع من منعه ذلك، وفي هذا العذاب حكمة لأنه الحكيم يعرف المسيء من المحسن فيسيء العذاب للمسيء ويحسن الثواب للمحسن فهذا محكم فيما يعاقبهم به لزللهم. فالله تعالى يأتي أولا بالاسم المطابق للمعنى في الآية ثم بالاسم الذي يبين المعنى ويتممه.

وهنا أيضا تأثر ابن عادل بكلام الفخر الرازي، فالرازي أجاب المسألتين في هذه الآية، أولهما: كيف يدل قوله "أن الله عزيز حكيم" على الزجر والتهديد، ثم جوابه لمن احتج بهذه الآية على عدم وجوب لشيء قبل الشرع.67 فجمع ابن عادل هذين الجوابين ليكون ما سبق من شرحه.

قد ذكر صاحب الكشاف الزمخشري68 قصة فيه تدل على بلاغة هذين الاسمين هنا: "وروي أن قارئا قرأ: غفور رحيم، فسمعه أعرابي فأنكره ولم يقرأ القرآن وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه."69

ثم في موضع آخر جاء الله بهذين الاسمين بنفس الترتيب:

3- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾70

قال ابن عادل عند شرح هذه الآية أولا عن سبب الإتيان بهاتين الصفتين، فقال بأن ورود هاتين الصفتين يدل على كمال علم الله تعالى لأن معرفة الإلهية لا تحصل إلا بهما، لأن كونه قائما بالقسط لا يتم إلا إذا كان عالما بمقادير الحاجات، وكان قادرا على تحصيل المهمات.

ثم بين سبب تقديم الصفة العزيز على الصفة الآخرى الحكيم قائلا: "وقد قدم "العزيز" على "الحكيم" لأن العلم بكونه تعالى قادرا متقدم على العلم بكونه عالما في طريق المعرفة الاستدلالية، فلما كان هذا الخطاب مع المستدلين – لا جرم – قدم ذكر "العزيز" على "الحكيم".71

فالتقديم عنده هنا ما زال ليناسب السياق وترتيب ما سبق من الآية، كما يلعب السياق دورا مهما في تحديد معنى الآية والمعنى السري وراء الكلمات الظاهرة في كثير من الآيات القرآنية التي يعتبر قمة الفصاحة والبلاغة.

الفخر الرازي أيضا رأى هكذا.72 والعلماء بعدهما تأثروا بهما كمثل أبي حيان فنقل منهما حرفيا،73 وأبي السعود فذكر نفس المعنى في تفسيره في أسلوب بسيط: "ووجه الترتيب تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته تعالى"،74 والآلوسي أيضا نقل منهم نفس الرأي فجعل "العزيز" ناظرا إلى قوله "لا إله إلا هو" و"الحكيم" ناظرا إلى قوله تعالى: "قائما بالقسط".75

ثم تقديم "العزيز" على "الحكيم" في موضع آخر:

4- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾76

القصص التي ذكرت في هذه الآية قصص عيسى بن مريم عليهما السلام، للرد على ادعاءات النصارى حولهما، إن ابن عادل عند شرحه لقوله تعالى "وإن الله لهو العزيز الحكيم" أشار أولا إلى أن

هذا كمثل قوله تعالى "إن هذا لهو القصص الحق" فيه جواب عن شبهات النصارى، ثم وضح هذا بأمرين والسر البلاغي لترتيب الصفتين مضمون في كلامه هذا:

" أحدهما: أنه قدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فكأنه تعالى قال: هذا القدر من القدرة لا يكفي في الإلهية، بل لا بد وأن يكون عزيزا، غالبا، لا يدفع ولا يمنع، وأنتم اعترفتم بأن عيسى عليه السلام ما كان كذلك، بل قلتم: إن اليهود قتلوه.

والثاني: أنهم قالوا: إنه كان يخبر عن الغيوب وغيرها، فكأنه تعالى قال: هذا القدر من العلم لا يكفي في الإلهية، بل لا بد وأن يكون حكيما، أي: عالما بجميع المعلومات، ويجمع عواقب الأمور.

فذكر العزيز الحكيم ههنا إشارة إلى الجواب عن هاتين الشبهتين، ونظير هذه الآية ما ذكر تعالى في أول السورة من قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ." (آل عمران، 6)77

من كلامه نعرف أنه رأى أن هاتين الصفتين جاءتا للجواب على هاتين الشبهتين، والسر البلاغي للتقديم هنا مثل السر في أمثال هذه الآية التي سبق شرحها في هذا البحث، أي للمناسبة والمطابقة والعلة والمعلول.

وقد استفاد المفسر من كلام الفخر الرازي.78

ز- تقديم العزيز على الحميد:

ثم نأتي إلى آية أخرى فيها أيضا تقديم "العزيز" ولكن على صفة أخرى:

1- ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾79

هذه الآية أول آية من سورة إبراهيم، قبل أن نعرف سبب تقديم "العزيز" على "الحميد" لا بد نعرف سبب مجيء هاتين الصفتين في بداية السورة التي دائما يعتبر مفتاحا لفهم كل سورة، فلنتكلم أولا عن موضوع هذه السورة.

فموضوع السورة: "الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وذكر القيامة وأهوالها والنار وعذابها والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية. وجو السورة هو من بيان حقيقة نعمة الله على البشر، وزيادتها بالشكر نصيب ملحوظ ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران، وفيها يعدد الله عز وجل نعمه على البشر مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، طائعهم وعصيهم لعلهم يشكرون، ورد فيها تشبيه الإسلام بالكلمة الطبية والكفر بالكلمات الخبيثة." "ومحور السورة هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور بالقرآن الكريم على يد النبي صلى الله عليه وسلم مصدقا لقوله تعالى: لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.80

الآن نعرف أن هذه السورة تدور حول بعض الموضوعات المحورية من الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وإثبات الرسالة والجزاء خيره وشره ومجادلة المشركين إلى بيان حقيقة نعمة الله على البشر وزيادتها بالشكر. فالموضوعات الأولى التي تتعلق بالتوحيد والجزاء والمجادلة تحتاج إلى القدرة الكاملة المطلقة، فجاء الله بصفة "العزيز" تناسب هذه المعنى. ثم جاء بصفة أخرى "الحميد" تناسب الموضوعات الآخرى التي تتعلق بالنعمة والشكر. لأن من يستحق العبادة الخالصة لا بد أن يكون عزيزا لا يتحداه أحد وهذا الإيمان أكبر نعمة أعطاناها الله تعالى. ففي بداية هذه السورة العظيمة جاء الله تعالى بهاتين الصفتين.

وهذا مثل ما قاله ابن عطية في تفسيره: "العزيز والحميد صفتان لائقتان بهذا الموضع، فالعزة من حيث الإنزال للكتاب، وما في ضمن ذلك من القدرة، واستيجابة الحمد من جهة بث هذه النعمة في نصب هدايتهم."81

فترتيب هاتين الصفتين يناسب هذا المعنى، بسبب عزة الله نعبده وحده وبهذا يخرجنا الله من الظلمات إلى النور ومن الشرك إلى الإيمان ولا بد أن نشكره ونحمده على هذه النعمة الكبرى.

فقال ابن عادل عن تقديم ذكر العزيز على الحميد "لأن أول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادرا، ثم بعد ذلك يعلم كونه عالما، ثم بعد ذلك يعلم كونه غنيا عن جميع الحاجات والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني، فلذلك قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد."82

فرأي ابن عادل كما شرحنا، أما العلماء الآخرون كمثل الفخر الرازي فهو ذكر عشر مسائل عند شرح هذه الآية وفي جوابه للمسألة العاشرة ذكر سبب تقديم العزيز على الحميد بأن العلم بكون الله تعالى قادرا متقدما على العلم بكونه عالما بالكل غنيا عن الكل لا جرم قدم الله ذكر العزيز.83

من كلامه نستطيع أن نعرف بوضوح بأن ابن عادل في هذه المسألة أيضا تأثر بالرازي، ووافق رأيه تفسيره.

وبعض العلماء بعدهما أيضا تأثروا بهذا الرأي، منهم الآلوسي، فقال في تفسيره نفس الكلام إلا أنه أضاف السر البلاغي إلى هذا: "أن الحميد هو المحمود المثنى عليه وهو سبحانه محمود بحمده لنفسه أزلا وبحمد عباده له تعالى أبدا، وأما ما ذكره في العزيز فهو قول لبعضهم، وقيل هو الذي لا مثل له وربما

يقال على هذا: إن التقديم للاعتناء بالصفات السلبية كما يؤذن به قولهم: التخلية أولى من التحلية وكذا قوله تعالى: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير."84

ففي رأي الآلوسي أن التقديم هنا تقديم الصفات السلبية على الإيجابية، والتخلية قبل التحلية.

ح- تقديم الرؤوف على الرحيم:

ثم نأتي إلى الآية فيها تقديم الرؤوف على الرحيم:

1- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾85.

قال ابن عادل في هاتين الصفتين: "والرأفة أشد الرحمة، فهي أخص منها، وقيل بينهما عموم وخصوص، فلا ترى فيه أكمل من الرحمة بالكيفية، والرحمة اتصال النعمة برقة يكون معها إيلام". ثم قال: "وإنما قدم على 'رحيم' لأجل الفواصل."86

من كلامه هذا نعرف أنه أولا تحدث عن معنى الرأفة والفرق الدقيق بين الرأفة والرحمة، ثم أشار إلى أن تقديم "رؤوف" على "رحيم" لرعاية الفاصلة فحسب بدون بيان علاقة الصفتين بما قبلها.

أما العلاقة بين الصفتين وبما قبلهما، فكما بينه الفخر الرازي في تفسيره بأن لها وجوها: أحدها أن الله تعالى لما أخبر أنه لا يضيع إيماننا وهو رؤوف رحيم فكيف يتصور منه الإضاعة؛ وثانيها أنه لرؤوف رحيم فلذلك ينقلنا من شرع إلى شرع آخر وهو أصلح لنا وأنفع في ديننا ودنيانا؛ وثالثها أنه تعالى قال "وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله فكأنه تعالى قال وإنما هداهم الله ولأنه رؤوف رحيم.87

كما أنه أشار أيضا إلى الفرق بين الرأفة والرحمة بأن الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهي دفع المكروه وإزالة الضرر، والرحمة اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام. ثم بين سبب تقديم الرأفة على الرحمة بأنه تعالى ذكر الرأفة أولا بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم ويخفف المحن عنهم، وذكر الرحمة ثانيا لتكون أعم وأشمل، بمعنى لا تختص رحمته بذلك النوع بل هو رحيم من حيث أنه دافع للمضار التي هي الرأفة وجالب للمنافع معا.88

فالفرق بين الرأفة والرحمة عند ابن عادل والفخر الرازي هو الفرق بين الأخص والأعم، فهذا التقديم هو تقديم الأخص على الأعم وإن كان ابن عادل لم يشر إليه بشكل مباشر.

ثم وجدت هذا الرأي عند العلماء الآخرين، ومنهم أبو السعود. فقد أشار أيضا نفس الفرق بينهما، بالإضافة إلى بيان بأن الله ذكر أنه لرؤوف رحيم "تحقيق وتقرير الحكم قبلها وتعليل له، فإن اتصافه عز وجل بهما يقتضي لا محالة أن لا يضيع أجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم والباء متعلق برؤوف وتقديمه على رحيم مع كونه أبلغ منه لما مر في وجه تقديم الرحمن على الرحيم.89

ثم جاء ابن عاشور قال: "وتقديم رؤوف ليقع لفظ رحيم فاصلة فيكون أنسب بفواصل هذه السورة لبناء فواصلها على حرف صحيح ممدود يعقبه حرف صحيح ساكن ووصف رؤوف معتمد ساكنه على الهمزة والهمزة شبيه بحروف العلة فالنطق به غير تام التمكن على اللسان وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا أشبه حرف اللين فلا يتمكن عليه سكون الوقف."90

من كلامه نجد أنه لم يبين هذه النقط كما بينه الفخر الرازي وأبو السعود إلا أنه وافق ابن عادل في سبب تقديم رؤوف على رحيم، أي لرعاية الفاصلة مع توضيح مفصل لكيفيته.

من هذه الشروح نعرف أن ابن عادل رأى هذا التقديم للفواصل، ولكن لم يبينه بشكل مباشر، فالعلماء قبله خاصة بعض العلماء بعده تكلموا عن معنى الصفتين وعلاقتهما بالسياق والسر البلاغي بشكل واضح وتفصيل، إلا أن ابن عاشور وافقه في السر البلاغي لهذا التقديم مع توضيح هذا السر.

ط – تقديم العزيز على الرحيم:

الآن نأتي إلى آية أخرى فيها تقديم "العزيز" على "الرحيم":

1- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾91.

من هذه الآيات نعرف أن الله تعالى هنا يتكلم عن قدرته على الانتقام من هؤلاء الكفرة ونعمه على الناس بإنبات كل زوج كريم في الأرض، ثم أشار إلى أن أكثرهم بهذه النعم جاحدون، فجاء القرآن الكريم بالصفتين تدلان على هذه المعاني. فالعزة تدل على القدرة فيستطيع الله أن يفعل كما يشاء بما فيها أيضا معنى التهديد والوعيد للكفرة، والرحمة تدل على هذه النعم العظيمة التي بدونها لفانت الأرض وكل ما عليها كما فيها معنى الوعد للمؤمنين.

وأما عن سبب تقديم "العزيز" على "الرحيم"، فقال ابن عادل – رحمه الله: "وإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل: إنه رحيم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر

العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت إعظم وقعا."92

فرأى ابن عادل أن الله تعالى أثبت أولا أنه الغالب القاهر، ثم بين أنه رحيم بعباده مع أنه قادر على العقاب، ففي هذا الأسلوب والترتيب أكثر تأثيرا على نفوسهم وأكبر وقعا في قلوبهم لهذه النعمة.

هذا ايضا رأي أبي حيان من قبله،93 لعل ابن عادل تأثر به في هذه المسألة.

وأما عن السر البلاغي لهذا التقديم فعند صاحب روح المعاني كلام آخر، فقال إن تقديم العزيز لأن ما قبله أبين في إظهار القدرة أو لأنه أدل على دفع المضار الذي هو أهم من جلب المصالح.94

فرأى الآلوسي أن العزة تتعلق بما قبله أظهر وتشير إلى دفع المضار للناس ودفع المضار أقرب إلى نفوس الناس من جلب المصالح فالله تعالى يقدمها في الذكر.

كما قلنا من قبل أن هذه الآراء كلها صحيحة من ناحية ما، بهذه الآراء المختلفة يسهل علينا فهم الآيات القرآنية.

الخاتمة

هذه كل الأمثال في تقديم صفة على صفة أخرى وكلام ابن عادل فيها وما كان يتأثر بالسلف أو يؤثر على الخلف.

من هذه الشروح نعرف أن مجيء صفة من صفات الله تعالى في القرآن الكريم أو تقديم صفة على آخرى في نهاية الآية ليس عبثا، بل له قاعدة ونظام، فهذه الصفات تتعلق بما قاله الله تعالى قبلها

وبعدها، ولها أقوى علاقة بمناسبة الآية وسياقها. هذا هو المفتاح المهم لفهم الآية مثلها، بل للقرآن الكريم كله. فبهذا الطريق نستطيع أن نتجنب الكثير من الأخطاء في فهم كلام الله تعالى وتفسيره حتى نقدم للناس ما هو أقرب إلى الصواب والحقيقة عندما نتكلم عن موضوع يتعلق بالقرآن الكريم أو ما فيه من القضايا المختلفة.

الهوامش

1 هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (400-471هـ/1009-1079م)، نحوي ومتكلم، ولد في جرجان لأسرة رقيقة الحال، نشأ ولوعا بالعلم، محبا للثقافة، فأقبل على الكتب يلتهمها، وخاصة كتب النحو والأدب. وهو يعتبر أحد المؤسسين لعلم البلاغة، ويعد كتاباه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من أهم الكتب التي ألفت في هذا المجال. ---- انظر: طبقات المفسرين لشمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 1، ص 336.

2 دلائل الإعجاز، للشيخ عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخنجي 1987م، القاهرة، ص 106.

3 سورة الأعراف، 180.

4 سورة الإسراء، 110.

5 سورة الحشر، 24.

6 هو أبو حفص سراج الدين عمر بن على بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، عالم وفقيه ومفسر. تاريخ مولده ووفاته غير محدد، ولكن تشير بعض الدراسات إلى أن حياته محصورة بين عام 675هـ وعام 775هـ. ---- انظر: تفسير اللباب في علوم الكتاب لابن عادل، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ على محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ/1998م، ج 1، ص 20.

7 هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي(121-216هـ، 740-831م)، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. ولد وتوفي في البصرة. كان كثير التطوف في الروادي يقتبس علومها ويتلقى أخبارها. ثم اشتهر بين الناس بعلمه حتى أصبح جليس الخلفاء. له مؤلفات كثيرة في العديد من المجالات المختلفة، من أشهرها الأصمعيات. ---- انظر: طبقات المفسرين لشمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، ج 1، ص 360.

8 ذكرت هذه القصة في حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2001م، ج 5، ص 163.

9 سورة البقرة، 31-32.

10 تفسير اللباب، ج 1، ص 522.

11 هو العلامة محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين، أبو حيان، الغرناطي الأندلسي الجياني النفزي، ولد في غرناطة سنة 654هـ. طلب العلم في الغرناطة ثم في تونس ثم في مصر حتى أصبح عالما كبيرا في علوم اللغة والقرآن. عمر أبو حيان في القاهرة حتى توفي في منزله خارج باب البحر بظاهر القاهرة في الثامن والعشرين من صفر سنة 745هـ، ودفن بمقابر باب النصر شمال القاهرة. له أعمال كثيرة وأشهرها وأعظمها هو تفسيره الضخمة البحر المحيط الذي يعد قمة التفاسير التي عينت بالنحو. ---- انظر: طبقات المفسرين لشمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، ج 2، ص 287.

12 تفسير البحر المحيط لأبي حيان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة 2010م، ج 1، ص 297-298.

13 اسمه أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود، كنيته أبو العباس، ويلقب بشهاب الدين أو الشهاب الحلبي المعروف بالنحوي أو السمين الحلبي، وهذا أشهر ألقابه. لم تذكر لنا المصادر العربية شيئا عن زمن ولادته إلا أغلب المؤرخين لا يختلفون في مكان نشأته حلب وزمن وفاته، فقد توفي في القاهرة سنة ست وخمسين وسبعمئة للهجرة النبوية الشريفة. كان يتنقل في بلاد مصر بين بيئاتها العلمية، كان أحد أكابر اصحاب أبي حيان الأندلسي، من أشهر مؤلفاته تفسيره الدر المصون. ---- انظر: طبقات المفسرين لشمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداوودي، ج 1، ص 101.

14 تفسير الدر المصون للسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج 1، ص 267.

15 هو قاضي القضاة الإمام أبو السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة 901 هجرية، هو فقيه وقاضي ومفسر، ولد في قصبة لأسكليب العثمانية في نهايات القرن التاسع الهجري، هو من أكبر العلماء في عصره، له تفسير كبير يسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" المشهور بتفسير أبي السعود، وبسبب هذا التفسير العظيم دعي أبو السعود بلقب "خطيب المفسرين". ---- انظر:

معجم مصنفات القرآن الكريم للدكتور على شواخ إسحاق، دار الرفاعي، الرياض، ط 1، 1404هـ/1984م، ج 2، ص 107.

16 تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 1، ص 86.

17 هو محمد الطاهر بن عاشور، ولد في 13 رجب 1879م وتوفي في 12 أغسطس 1973م، عالم وفقيه تونسي، ولى حاكما بالمجلس المختلط، ثم مفتيا ثم شيخ الإسلام المالكي، كما أنه كان أول شيخ لجامعة الزيتونية. أما كتبه ومألفاته فقد وصلت إلى الأربعين وهي غاية في الدقة العلمية، وهي تنقسم إلى قسمين: العلوم الإسلامية والعربية وأدابها. منها "مقاصد الشريعة الإسلامية" و"حاشية التنقيح للقرافي" و"أصول العلم الاجتماعي في الإسلام" و"موجز البلاغة" و"كتاب الإنشاء والخطابة" وإلخ. ومن أجلها تفسيره "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، وهو مشهور بـ"تفسير التحرير والتنوير". انظر: موقع ويكيبيديا تحت الكلمة محمد الطاهر ابن عاشور، تاريخ الاطلاع: 28 سبتمبر 2020.

18 تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى 1984م، ج 1، ص 416.

19 سورة البقرة، 127.

20 هو أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية المحاربي، من قبيلة قيس غيلان بن مضر، من أهل غرناطة الأندلس. ولد سنة 481هـ وتوفي سنة 546هـ. كان فقيها عالما بالتفسير والأحكام والحديث، وكانت له اليد الطولى في اللغة والأدب والشعر. له تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المشهور بتفسير المحرر الوجيز أو تفسير ابن عطية. ---- انظر: تفسير المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1422هـ/2001م، ج 1، ص 26.

21 تفسير المحرر الوجيز، ج 1، ص 211.

22 سورة آل عمران، 107.

23 تفسير اللباب، ج 2، ص 480.

24 انظر: تفسير الدر المصون، ج 2، ص 115.

25 انظر: تفسير البحر المحيط، ج 1، ص 559.

26 انظر: تفسير التحرير والتنوير، ج 1، ص 719.

27 سورة البقرة، 224.

28 تفسير اللباب، ج 4، ص 89.

29 انظر تفسير الدر المصون، ج 2، ص 430.

30 تفسير البحر المحيط، ج 2، ص 189-190.

31 سورة الأنبياء، 4.

32 سورة الأنبياء، 3.

33 تفسير اللباب، ج 13، ص 451.

34 هو محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر الشهير بخطيب الري، ولد سنة 544هـ وتوفي سنة 604هـ. هو إمام مفسر فقيه أصولي، عالم موسوعي امتدت بحوته ودراساته ومألفاته من العلوم الإنسانية اللغوية والعقلية إلى العلوم البحتة في الفيزياء والرياضيات والطب والفلك. له تفسير شهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب وتفسير الرازي. ---- انظر تفسير الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى 1401هـ/1981م، ج 1، ص 3.

35 انظر: تفسير الرازي، ج 22، ص 143.

36 سورة الروم، 54.

37 وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ---- سورة الروم.

38 تفسير اللباب، ج 15، ص 429.

39 انظر تفسير الرازي، ج 25، ص 137.

40 سورة البقرة، 37.

41 وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖوَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾.

42 تفسير اللباب، ج 1، ص 577.

43 انظر: تفسير الدر المصون، ج 1، ص 296.

44 انظر تفسير الدر المصون، ج 1، ص 296.

45 تفسير المحرر الوجيز، ج 1، ص 131.

46 انظر: تفسير البحر المحيط، ج 1، ص 320.

47 هو محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الآلوسي، ولد في سنة 1217هـ ، وتوفي في سنة 1270هـ، نسبه يرجع إلى حسن بن علي بن أبي الطالب،. هو مفسر محدث فقيه أديب وشاعر. من أهم وأشهر مؤلفاته تفسيره روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المعروف بتفسير الآلوسي أو تفسير روح المعاني. ---- انظر: موقع ويكيبيديا تحت الكلمة أبو الثناء الآلوسي، تاريخ الاطلاع: 28 سبتمبر 2020.

48 تفسير روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 1، ص 237-238.

49 انظر: تفسير التجرير والتنوير، ج 1، ص 439.

50 سورة البقرة، 128.

51 سورة البقرة، 182.

52 تفسير اللباب، ج 3، ص 248-249.

53 انظر تفسير الرازي، ج 5، ص 73.

54 انظر تفسير أبي السعود، ج 2، ص 154.

55 انظر تفسير روح المعاني، ج 2، ص 56.

56 انظر تفسير التحرير والتنوير، ج 2، ص 154.

57 سورة البقرة، 129.

58 تفسير اللباب، ج 2، ص 492.

59 تفسير الفخر الرازي، ج 4، ص 74.

60 تفسير الدر المصون، ج 2، ص 120.

61 تفسير البحر المحيط، ج 1، ص 564.

62 تفسير الفخر الرازي، ج 4، ص 74.

63 تفسير الفخر الرازي، ج 4، ص 74.

64 تفسير البحر المحيط، ج 1، ص 564.

65 سورة البقرة، 209.

66 تفسير اللباب، ج 3، ص 479-480.

67 انظر تفسير الرازي، ج 5، ص 229.

68 هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (467هـ - 528هـ)، وهو إمام كبير في الحديث والتفسير والنحو والبلاغة، له مالفات عظيمة في كل هذه العلوم. ومن أشهر مألفاته تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل المشهور بتفسير الكشاف أو تفسير الزمخشري. ---- انظر: تفسير الكشاف، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة 1430هـ/2009م، ج 1، ص 7.

69 تفسير الكشاف، ج 2، ص 124.

70 سورة آل عمران، 18.

71 تفسير اللباب، ج 5، ص 101.

72 انظر تفسير الرازي، ج 7، ص 224.

73 انظر تفسير البحر المحيط، ج 2، ص 424.

74 انظر تفسير أبي السعود، ج 2، ص 17.

75 انظر تفسير روح المعاني، ج 3، ص 105.

76 سورة آل عمران، 62.

77 تفسير اللباب، ج 5، ص 293.

78 انظر تفسير الرازي، ج 8، ص 93.

79 سورة إبراهيم، 1.

80 انظر التفسير الموضوعي، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، بإشراف أ. د. مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م، ج 4، ص 2.

81 تفسير المحرر الوجيز، ج 3، ص 322.

82 تفسير اللباب، ج 11، ص 331.

83 تفسير الرازي، ج 19، ص 76.

84 انظر تفسير روح المعاني، ج 13، ص 182.

85 سورة البقرة، 143.

86 تفسير اللباب، ج 3، ص 29.

87 تفسير الفخر الرازي، ج 4، ص 119.

88 المصدر السابق نفسه.

89 تفسير أبي السعود، ج 1، ص 174.

90 تفسير التحرير والتنوير، ج 2، ص 26.

91 سورة الشعراء، 7-9.

92 تفسير اللباب، ج 15، ص 7.

93 تفسير البحر المحيط، ج 7، ص 7.

94 انظر تفسير روح المعاني، ج 19، ص 63.